المحاضرة الثالثة:

الظواهر الأسلوبية : الانزياح

لهذا المصطلح (أي الانزياح) أكثر من أربعين مقابلا عند النقاد والدارسين، عربا وغربا، نذكر:

-الانزياح، التجاوز (فاليري) -الانحراف(سبيتزر) -الاختلال(ويلك ووارين)

-الإطاحة (باتيار) -المخالفة والكسر (تيري) -الشناعة والفضيحة(رولان بارت)

-الانتهاك (كوهين) -خرق السنن، اللحن، الشذوذ (تودوروف) -العصيان(أراجون) - الجنون

-التحريف(جماعة مو) -الجسارة اللغوية -الغرابة -الابتكار -الخلق -الانكسار -انكسار النمط

-كسر البناء - الازاحة - الاختراق - المفارقة التنافر - الإخلال - التغريب -فجوة التوتر

أحصينا ما يربو عن أربعين مصطلحا، ولعل هذا يسيء للغة النقد، وما على الدارس إلا استبعاد العديد من هذه المصطلحات لبعدها عن اللياقة التي على الأدوات النقدية الاتسام بها.

وفيما يأتي مفهوم بعضها، وإن كانت جميعا تصبّ في رافدٍ واحد:

- **الانحراف:**

-الخروج عن القاعدة ومخالفة القياس (جمع فارس على فوارس، والقياس أن يكون جمعا لفارسة)

-يشمل كل تغيير في ترتيب الحروف داخل الكلمة، والكلمات داخل الجملة، واستعمال الألفاظ استعمالا مجازيا لغرض بلاغي.

-الاستعارة انحراف عن الأسلوب الواضح الدقيق. يقول جاك كوهين: (إنّ الشعرية تتحدد بالمجاز والمجاز خرق أو انحراف، وهو اللحن بمفهوم النحو التوليدي، ومن ثمّة فهو يعتري التركيب).

-تحطيم اللغة العادية وخلق لغة سامية شعرية(خرق منطقي ودلالي ومعرفي وصوتي، خرق لقواعد الانتقاء وللمعرفة الموسوعية)

- **العدول:** مصطلح بلاغي تراثي عربي.

- **الانزياح (Ecart):** وهو البعد أو التباعد، إذ الأسلوب ابتعاد عن الكلام المألوف والمستعمل.

- **الإزاحة(Deplacement):** مصطلح انتقل من مجال علم النفس إلى مجال النقد (أحد آليات الدفاع عند فرويد).

-الاستعارة في النظرية التقليدية هي إزاحة للكلمات وتبديل لها.

- **كسر البناء:** الخروج على قواعد اللغة التماسا لجمال الأداء وروعته.

- **كسر النمط:** عند عبد الله الغذامي، يقول: (الإيقاع إذا ثبت على نمط واحد فإنه يتحول حينئذ إلى رتابة تميت حس النص...ومن هنا تأتي أهمية كسر النمط والخروج منه إلى بدائل تشير الى قدرة المنشئ ومهارته، كما أنها تنقذ النص من الدخول في سُبات فني مُهلِك).

- **الخرق:** عند محمد مفتاح: (الشعر يقوم على خرق العادة المعرفية والتعبيرية). وعند أدونيس: (الشعر خرقٌ مستمر للقواعد والمقاييس)، وعند موكاروفسكي: (إنّ السمة الرئيسية التي تميز اللغة الشعرية عن اللغة المعيارية هي سمتها التحريفية، أي انحرافها عن قانون اللغة المعيارية، وخرقها له).
- **الغرابة/ التغريب/الإغراب**[1]: أوردت(آن جفرسون) تعريفا له في سياق حديثها عن الشكلانية الروسية، تقول: (مضادٌ لما هو معتاد). وهو عند الغذامي تغريب المألوف، أي إعطاؤه صبغة غير عادية.
- **الأصالة:** خلاف التقليد والتكرار والاعتياد. يسميه محمد عابد الجابري "اللاتقليد".

-فُرادةٌ أو ابتكار، أسلوبا ومضمونا، بعيدا عن المناهج المطروقة والآراء الشائعة والعبارات الرائجة والصور المألوفة.

- **المفارقة:** الاستخدام المراوغ في اللغة/شكل من أشكال البلاغة (من نماذجها المدح في صيغة الذم، والذم في صيغة المدح) ربط كل من رينيه ويلك وأوستين مفهوم الأسلوب بمجموع المفارقات التي نلاحظها بين نظام التركيب اللغوي للخطاب الأدبي وغيره من الأنظمة، وهي مفارقات تنطوي على انحرافات ومجازفات، بها يحصل الانطباع الجمالي. لذلك عدّوا الخروج عن قواعد المنطق محمودا في الأدب، ولذلك حَمَدَ النقاد الشكليون المفارقة والتوتر، وعدوها من علامات الشعر الجيّد.
- **الانزياح:** تحايلٌ يحدث باللغة داخلَ نظام اللغة/ خرق القواعد والخروج عن المألوف كسراً للرتابة ووصولا للإمتاع. وإنّ ما يحدد الواقعة الشعرية في نظر النقاد هو انزياحها عن سنن اللغة، والحديث عن الانزياح يفترض وجود أصل يُنزاح عنه هو المعيار(La norme). والانزياح شرطٌ ضروري لكل شعر، بل لا يوجد شعر يخلو منه، إلا أنه بعيد عن العشوائية، ويبتغي الجِدّة، يقول الشاعر آراغون:(لا يتحقق الشعر إلا بقدر تأمل وإعادة خلق اللغة مع كل خطوة، وهذا يفترض تكسير الهياكل الثابتة للغة وقواعد النحو وقوانين الخطاب).

وصور الانزياح كثيرة، نكتفي منها بـ : "**الانزياح التركيبي**"، والذي يتمظهر في أكثر من ظاهرة تركيبية، هذا بيانها:

1-التقديم والتأخير: نُقدم ونؤخر تحقيقا لغرض نفسي دلالي، وهو ملمح أسلوبي ذو وظيفة جمالية، يسميه كوهين: (الانزياح النحوي).هنا ينتهك نظام الرتبة في اللغة أو ترتيب الكلمات، بحيث يقوم المبدع بتحريك الكلمات عن أماكنها الأصلية، فيقدم ما حقّه التأخير كالخبر أو المفعول به، ويؤخر ما استحق التقديم كالمبتدأ أو الفعل، ويكون ذلك لغرض فني أو جمالي يودُّ تحقيقه. ومن صوره:

-التقديم والتأخير بين ركني الجملة.

-التقديم والتأخير بين أركان الجملة ومتعلقاتها كتقديم المفعول به على الفاعل.

[1] مفهوم شكلاني (يعود إلى الشكلانية الروسية)، حيث دعا الشكلانيون إلى تجاوز الطابع التقريري للأدب، وتحطيم مقولة الواقعية، واقترحوا وسائلَ لتحقيق مفهوم التغريب، أي جعل المألوف لدى المتلقي غريبا عن طريق التنويعات الفنية. يقول شلوفسكي: (إنّ أداة الفن هي أداة تغريب الموضوعات وأداة الشكل التي بها يصير صعبا، وهي أداة تزيد من صعوبة الإدراك ومدته، لأنّ عملية إدراك الفن هي غاية في حدّ ذاتها، ولذلك ينبغي تمديدها). فما يميز الأدب في نظر الشكلانيين إغرابُه في التصوير، وهنا تكمن خصوصيته التي تمكنه من البعد عن المباشَرة والتقريرية، والدخول إلى مجال متفردٍ، يشكل دهشةً جماليةً عند متلقيه.

-التقديم والتأخير بين متممات الجملة.

يقول أدونيس:

في الشقوق تفيّأت

كنتُ أجسُّ الدقائق

الأصل: تفيّأت في الشقوق: تقديم شبه الجملة على الفعل. إذن، عَدَلَ الشاعر عن الأسلوب الاخباري لأنه يخدم شعرية النص.

2-الحذف: أو الفراغ النصي مع ترك قرائن دالة على المحذوف. وهي ظاهرةٌ تسهم في خلق الفضاء الشعري واتساع آفاقه، حين يقوم المتلقي بإضافة العناصر الغائبة، فالحذف عبارة عن حلقات فارغة يملؤها القارئ، ويقدرها تقديرا. وقد عدّه البلاغيون ضربا من العُدول وهدفه الإطراب والإلذاذ، ودعوة لإعمال الفكر في المحذوف والمضمر من القول، وقطع للسآمة والرتابة في الشعر.

يقول أدونيس:

ملكٌ والفضاء خَراجِي، ومملكتي خطواتي

ملكٌ أتقدم أبني فُتوحي

فهذه الأسطر الشعرية مجردة من الضمير (أنا): الجملة هنا غير مكتملة إسناديا، وعليه فهي خطاب مفتوح، لا يحدُّه حدٌّ.

والحذف أيضا في قوله:

والخيامُ خناجر مشدودة والحبال صلاة

علقينا هناك بالنخل بالعشب

حيث الحياة

واربطينا الى الماء

لا ماءَ، لا عاصمَ، والنبيون ماتوا

الأصل: لا ماء (هنا).../لا عاصمَ (غير الله)

فالخبر في الحالتين محذوفٌ يُقدّرُ بحسب السياق.

3-الالتفات: سمةٌ أسلوبية، وتعني تحولات على مستوى الخطاب، كالانتقال من الغيبة إلى الخطاب أو العكس، أو التحول في الأزمنة من المستقبل إلى الأمر، أو العدول عن فعل ماضٍ إلى أمر، أو الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل أو العكس. والسياق كفيل بتحديد المعنى المراد، وهو معنى يتحدد بالقوة "اللاكلامية" بتعبير لاينز.

وفي الأسطر الشعرية التالية لأدونيس يظهر الالتفات بالعدول عن ضمير لآخر(تناوب الضمائر):

يجهل أن يزين السيوف بالأشلاء

يجهل كيف تبرق الأنياب

يأتون في نهر من الرؤوس والدماء ويصعدون الحائط القصير
وهو وراء الباب
يحلم أن يظل كالأطفال خلف الباب
يقرأ فصل الجائع الأخير

4-الفصل: يضمن الوصل اتساق الخطاب نحويا، ولكن الشعراء لا يهمهم من اللغة أن تؤدي ما تؤديه بوصفها معيارية، بل ما يحقق قدراً من الجمالية في ابتعادها عن العادي والمألوف. تلك اللغة التي تزيد من مسافة التوتر لدى القارئ لتجعله دائمَ التواصل معها، باحثا عن تأويل المشكل منها، وغير المؤتلف. ومن صوره الفصل بين الفعل والفاعل في مثل قول أدونيس:

هدأتْ فوق وجهي بين الفريسةِ والفارس الرّماحُ

أو مثل الفصل بين المبتدأ والخبر في قوله أيضا:

وأنا في فضاء الجنادبِ تحت الغيوم الجريحة
حجرٌ ميت الجناح
حجرٌ ميت القوادم

ويقول:

وهنا، بين الشقوق
فارسٌ يسرج عينيه على ضوء العروق
يحضن الأرض ويستسلم للأرض ويغفو
مثلما تستسلم النخلة للأرض وتغفو
في عباءات الفضاء
مطراً يأتي وواحاتُ رجاء

حيث فصل بين المبتدأ والخبر ليخدُمَ توجهات النص الكلية المتمثلة في إبراز دور الأنا الفاعلة. مثل هذا الفصل يُحوّل الأسلوب تركيبيا من مجرد تركيب عادي إلى مصدر غنيّ بالشعرية. أحدث بذلك تحولا في النسق على المستوى التركيبي، وفي الدلالة على المستوى الشعري.